تمارين في الغياب

يوسف الناصر
(عن موقعه على الفيس بوك)

(تمارين في الغياب) هي قصة لوحتي عن صديقي كامل شياع الذي قتلوه في بغداد في آب 2008

(Exercise in absence) , the story of a painting I did
about my friend Kamel Shia who was murdered
in Baghdad August 2008

قبل ايام من عودته الاخيرة الى العراق واغتياله هناك ، زارني كامل شياع في مرسمي في لندن بصورة مفاجئة ، كان بصحبته الصديق صفاء صنكور وكان الوقت ليلا وكنت لازلت اعمل ، في زاوية قصية من المرسم كان الصديق حمادي قد وصل حديثا من بلجيكا يخربش على ورقة كبيرة منتظرا بفارع الصبر ان انتهي من عملي لكي نذهب الى البار القريب . لم اكن اتوقع هذه الزيارة فكامل يقيم في بروكسل (بلجيكا) وكانت اخر مرة رايته فيها حدثت بصورة غير متوقعة ايضا.

كنت قادما من دمشق مع فوزي كريم في شهر ديسمبر من سنة 2007 وكان علينا تبديل الطائرة في مطار بروكسل باتجاه لندن ، عندما اعترضتنا شرطة الجوازات في ترانزيت المطار بسبب لحية فوزي الابدية وصورتها في جواز سفره الجديد حيث اختلفت كثافة الشعر بين الاثنين وتغير لونها ، ابقونا حتى ازف موعد اقلاع طائرتنا الى لندن ، وعندما تركونا ، بعد ان تاكدوا ان لحية فوزي لم تكن من النوع المتفجر، كان لابد من ان نهرول للحاق بطائرتنا .

اصطدم بنا كامل شياع الذي كان يهرول بالاتجاه المعاكس عائدا من بغداد ، لم يتسع لنا الوقت للحديث ، تبادلنا جملا او انصاف جمل سريعة ، كيف الاحوال ، الى اين انت متجه ، اين كنت ، قال انه عائد للتو من بغداد وان طائرته تاخرت هي الاخرى وانه يريد اللحاق بابنه الذي ربما لازال ينتظره في قاعة الاستقبال ، وقال انه عاد فقط لرؤية ابنه قبل ان يرجع الى العراق مرة اخرى . قبلناه على عجل بعد ان وعد بزيارتنا في لندن في المستقبل القريب وركضنا كل في طريقه . لكنني وفوزي امضينا وقتا نتحدث عن كامل واختياره (الخطر) ونحن في الطائرة.

لم تكن الامور قد اتضحت بعد في العراق ، كان خوفنا على كامل هاجس حديثنا رغم اننا كنا نرى في عمله في العراق خطوة شجاعة واختيارا صادقا ينبع من روحه النبيلة وانحيازه للانسان وفلسفته في الحياة ومواقفة السياسية المعروفة ، لكني ، ورغم انني كنت ادرك ان كامل كان يؤدي دورا وطنيا لن أتردد انا في تلبيته ، كنت اقول لفوزي ان كامل وضع قدما في المجهول الخطر ، لم تكن تلك نبوءة او ادراكا خارقا للمستقبل بل محصلة بسيطة لمتابعة ما كان يجري في العراق وايضا بسبب من طبيعتي القلقة وميلي الدائم الى رؤية الجزء الفارغ من الكاس ، ربما بسبب من رحلة حياتي المضطربة.

هذا الوسواس هو الذي شجعني تلك الليلة ان اطلب من كامل صراحة أن لا يعود الى العراق ، رغم ان طبيعة صداقتي معه لم تكن لتتسع لمثل ذلك الطلب ، غير ان رد كامل الذي بدى لي حينها حكيما ومتفائلا جعلني اشعر ان طلبي انما صدر عن روح مترددة خائفة تحاول ان تقف بموازاة روح كامل المقدامة الرحبة . كنت قلقا ومشتت الذهن واشعر بنوع من عدم الرضا تتجاذبني فكرتان متناقضتان ، فمرة اعزو سبب تشتتي وانفعالي ل (عجز) كامل عن ادراك حقيقة الوضع ومجانية تعريض نفسه للخطر وذلك بالرغم من ذكائه المعروف عنه ،

ومرة ارى انني بطلبي ذاك انما احاول ان احرم الناس والبلاد من طاقة كبيرة وعقل نادر هم احوج ما يكونون الى مثلها .

تحدثنا كثيرا وشربنا كاسا ، ولكي اصل الى تفاصيل البدء بلوحة (تمارين في الغياب (التي رسمتها عن كامل والتي اعتبره راسمها الاصلي ، لابد من استعارة بعض تفاصيل المقدمة المرفقة بهذه الورقة ، اذ كنت نشرت قبل أيام قماشة كبيرة على الجدار المقابل للبدء بلوحة جديدة ، طرق كامل الباب بينما كنت اضع ضربات الفرشاة الاولى عليها (تركت تلك الضربات الى اليوم كما هي في الزاوية اليمنى السفلى باللون الابيض) ، واثناء حديثنا طلبت من كامل مازحا ان ألتقط بعض الصور لليلتنا النادرة تلك ومن اجل ملصقات المستقبل ! ، وقبل ان يودعنا مغادرا سالته ان يكتب شيئا على قماشة اللوحة فاعترض مخافة ان يضر ذلك مشروع الرسم ، فشرحت له ان فكرة لوحتي هي ان يكتب اصدقائي ومعارفي وزواري شيئا حتى تغطي الكتابة سطح اللوحة فاقوم بعدها برسم اشكال محددة فوق الكتابة ، جاعلا منها ارضية للرسم.

بعد ايام وصلنا خبر اغتيال كامل في بغداد ، لم استطع الايفاء بوعدي ، تركت القماشة لاسابيع طويلة ، تواجهني كلما دخلت المرسم وتعيش معي يومي كله ، بيضاء شاسعة ، مخيفة ، خالية سوى من القليل ألذي كُتب عليها وجملة كامل في الوسط وبضع ضربات بيض في الزاوية . مالذي عساي أن اصنع بهذه المفازة المحرقة ، مالذي يستطيع الرسام ، اي رسام ، ان يفعل ؟.

لم أجرؤ ان اغطي كلمات كامل واجعلها جزءا من ارضية اللوحة ، ما يعني ان امحوها ولو جزئيا ، ولم افكر أن اترك تلك الجملة لوحدها مثل جزيرة معذِّبة في وسط اللوحة .فكرت في طي القماشة وركنها جانبا بكل ما تنطوي عليه من شجون ، لكني لم أشأ ترك الموضوع الذي كان يوازي عندي التخلي عن الصديق القتيل ، ففكرت ان اجعل من تلك (الجزيرة) بداية لعمل فني يختلف عن ما الفته في اعمالي الفنية ، ان اكتب قصة تلك اللوحة وقصة كامل وربما قصة بلادنا ، لوحة كتابة وبدون رسم !! أيُّ مفاجأة لنفسي هي تلك ان (أرسم) لوحة كتابة ، أنا الذي دأبت على رسم لوحات لا علاقة للكتابة بها على مدى علاقتي الطويلة بالرسم ، وتجنبت كل ما يتعلق بالحروف والحروفية وما سبقها ولحق بها من تنظير وممارسات . ربما تمنيت أن يكون في تلك التجربة الجديدة بعض سلوى تنسيني الأسى الذي كنت فيه .

وضعت خطة بسيطة للعمل وابتدأت في اليوم التالي ، دخل صديق وسألني عن اللوحة الجديدة فشرحت له الامر، تمنى مازحا لو كان يستطيع ان يضع بضع كلمات الى جانب سطري كامل ، لم أر في الأمر غضاضة ، لم لا ؟ ليشترك الجميع معي في تقاسم الالم ، هذا ألم كبير يكفي للجميع . !

على مدى الايام التالية صرت اطلب من زوّاري ان يكتبوا شيئا ، أسرد لهم القصة وأقدم بضع ملاحظات عن المواد المستخدمة ، واترك لهم حرية الكتابة ، أي شيء وباي لغة شاءوا . لكني سرعان ما اضفت عنصرا جديدا للعمل وهو ان اقوم بتصوير الضيوف وهم يكتبون ، وان اصور ما كتبوا ، وأن اعلق تلك الصور على الجدار الى جانب اللوحة .

مع مرور الوقت بدأت اللوحة بالامتلاء وازداد عدد الصور فرأيت ادخالها في بناء اللوحة ، اي ان تكون القماشة جزءا من اللوحة وليس اللوحة كلها . عرضت اللوحة في بروكسل في ذكرى كامل الاولى أو الثانية حسب ما أذكر ، ليس باعتبارها لوحة منتهية بل مشروعا للاكتمال اثناء العرض ، اردت ان اصنع لوحة لا تنتهي مادام سبب انجازها قائما ، ان يكون عرضها سببا لاكمالها والتفاعل معها . اردت لوحة حية لا تهمد بانتهاء العمل فيها ، كتبت نصا ووزعته على الحاضرين .

انجزت تكوينا يشبه بيتا ، اطار فقط ، حبل سميك يشكل مخططا خارجيا لبيت ، والقماشة تشغل احد جدرانه والصور اماكن مختلفة من بقية الجدران ، وذلك بمساعدة الاصدقاء رسمي كاظم وصلاح الحمداني وحمادي وحازم كمال الدين واخرين ، أضاف كثيرون كتاباتهم الى اللوحة وصورت كثيرين منهم ، وبعد انتهاء الأمسية التي تحدث فيها عدد من الاشخاص وشاركت بقراءة النص الذي كتبته عن مشروع اللوحة (مرفق مع ورقتي هذه) ، خرج الناس من القاعة الكبيرة وأطفأت الأضواء في اماكن كثيرة منها سوى تلك المسلطة على اللوحة . وقفت على مبعدة في زاوية شبه مظلمة أرقبها وحيدة تحت الاضواء . فجأة دخل من باب جانبي شاب في مقتبل العمر ، مشى بحذر نحو اللوحة ، تطلع الى اليمين واليسار ،ربما لكي يتاكد من خلو القاعة من الناس، بحث عن قلم وجلس على الارض وبدأ يكتب في أسفل جزء من وسط القماشة ، كان يتوقف بين حركة من قلمه واخرى ويطرق ببصره نحو الأرض ، هل كان يتذكر شيئا ، ام كان قلقا في ما يجب عليه اختياره من كلمات ؟ كان يكتب بيد ويلامس بالأخرى سطح القماشة وكانه يبحث عن شيء ما ، حركته ذكرتني بحركات زوار ضريح مقدس ، حيث يقتربون من حيطانه ونوافذه ، يتحسسونها ويتشممونها وقد يقبلونها . وضع القلم جانبا واطرق قليلا (هل كان يتاكد من صحة ما كتبه ومن احتمال وصول رسالته ؟) ، نهض ومشى بضع خطوات نحو الباب التي دخل منها ، توقف قليلا وكانه يريد العودة الى القماشة ، لكنه اكمل طريقة وحيدا مثلما دخل ، كان ذلك هو الولد الذي كان كامل يهرع للقاء به في مطار بروكسل قبل عام ، ابنه.

بقيت طوال حياتي كرسام اتوق لأن اقيم معرضا لي في العراق ، وبعد 37 سنة من المنفى اتيح لي جزء من فرصة ، ان اعرض بضع لوحات في البصرة على هامش مهرجان المربد سنة 2012 ، فاكتفيت بلوحة كامل التي اسميتها (تمارين في الغياب) ، وهناك ايضا طلبت من الحضور ان يكتبوا وصورت من كتب . فهل اتوقف الان ، هل اكتملت اللوحة ؟

فيما يلي النص الذي ارفقته باللوحة والذي اشرت اليه أعلاه:

تمارين في الغياب

ساهم كامل شياع في هذه اللوحة ، لكنها عن غيابه.
كتب فيها ، لكنها لوحتي عنه.
حكاية استكتبت لها كثيرين من أجل مؤانسته في دربه الموحش (و ربما السعيد) . فهي منه وهي له ، تقلّبُ في اوجاعه وفي سفره العجيب ، ومعنى غيابه.
ولا اجد معنى هنا للسؤال اذا ما كان كامل قد كتب وداعا لنا ولنفسه ، فهو لم يكن مبتئسا وهو يكتب انه سيغادر الى بغداد ولم يكن قلقا او مضطربا كما يُتَوقّع من مقبلٍ على رحلة بهذه الجسامة ، لم يكن في غير صورته المتكرّسة فينا جميعا التي هي مزيج فريد من السلام والتفاؤل والتواضع .
غير ان يدي امتدت بارتباك وحياء الى الكاميرا...
تنبه الى يدي الممتدة فنظر الي بابتسامته الاليفة كمن ينتظر جوابا على تلك الحركة الملغزة فما وجدت جوابا غير ان اذهب الى اقصى الجواب متهكما مازحا علنّي اقلل من فداحته:
قد يقتلونك يا كامل ! الا تريد ملصقا ؟
فاعانتني قهقهات الاصدقاء على رفع غطاء العدسة ، لكن ابتسامته الموافقة ، التي لمحتها بطرف عيني متعمدا الا انظر في عينيه مباشرة ، بدت لي وكانها ترتسم من خلال غيمة صغيرة ، او كأنها ابتسامة في تخطيط ارسمه احيانا باصابع معفرة بالفحم.
لم اكن اعلم انني احدثه لاخر مرة واصورة لاخر مرة واصافحة لاخر مرة ، وكيف لي ان أعلم ؟
لكني اتساءل ان كان لتلك الوخزة في قلبي تلك الليلة اي صلة بالامر.
كنت قد بدات لوحة جديدة في مشغلي في منطقة ايلنغ في لندن .

كانت القماشة مشدودة عندما دخل كامل ليلا على غير توقع ، فهو لا يعيش في لندن اصلا.
كتب على اللوحة انه ذاهب الى بغداد و صوّرته وهو يكتب .

بعد ان سمعت خبر موته غيرت اتجاه اللوحة وصرت اطلب من كل من يحضر ان يكتب شيئا بعد ان اخبره بقصة كامل ، شيئ يخطر في باله للتو عن حياته ربما ، عن معنى الموت ، والتقطت صورا لكثيرين وهم يكتبون ، تخليت عن فكرتي الاولى في جعل الكتابة ارضية للرسم ، ثم كتبت مقاطع كبيرة من رحلة الحياة والموت في ملحمة كلكامش واكبر منها من نصوص اخرى بينها الاسراء والمعراج وقصائد عن ذات الموضوع.

كانت النتيجة لوحة كتابة لم (ارسم) مثلها من قبل وتختلف كثيرا عن طريقتي في الرسم ...فالذي ينظر الى اعمالي الفنية الاخرى سيجد انني لست منتجا لهذا النوع من الفن.
هذا عمل جديد ، فرض كامل عليّ شكله ومنتهاه بموته .
سوى انني اقرر الان بقلب مطمئن اننا اخترناه معا!

هل حسم موت كامل ترددي باتجاه هكذا نوع من العمل الفني مثلما حسم ترددي باتجاه اسئلة ومواقف عديدة في حياتي وعلاقاتي ، ليس اقلها موقع الماضي في وجداني ومعنى ارتباطي بالمكان وصلتي مع العراق وغير ذلك ؟ هل كان هذا هو الباب الانسب للولوج الى هذا الركام الهائل من الاسئلة المؤجلة والافكار والاحلام والهواجس والتصورات ؟ وهل كان هذا هو الحد الذي تقف عنده الروح ويقف عنده العقل ويقسمان دنيا المرء الى ما قبل وما بعد ؟

لا ادري !!
هل كان بمقدوري ان اتحدث عن موت كامل بالكلمات القديمة ذاتها ؟ لكني لم اقصد الى الحديث باي نوع محدد من اللغة ، ذلك ان هول الفاجعة اتخذ طريقه واملى شكل ظهوره على قماشتي ....

لوحة كتابة الى جانب تكوين من صور فوتوغرافية يتصل بها بخيط سري من الم الموت والاحساس بالمرارة والسخرية من لاجدوى الاشياء والافكار ...

كلمات وصور اشخاص ما كنت لاصورهم لو لم اكن صورت كامل وهو يكتب سطوره الاخيرة

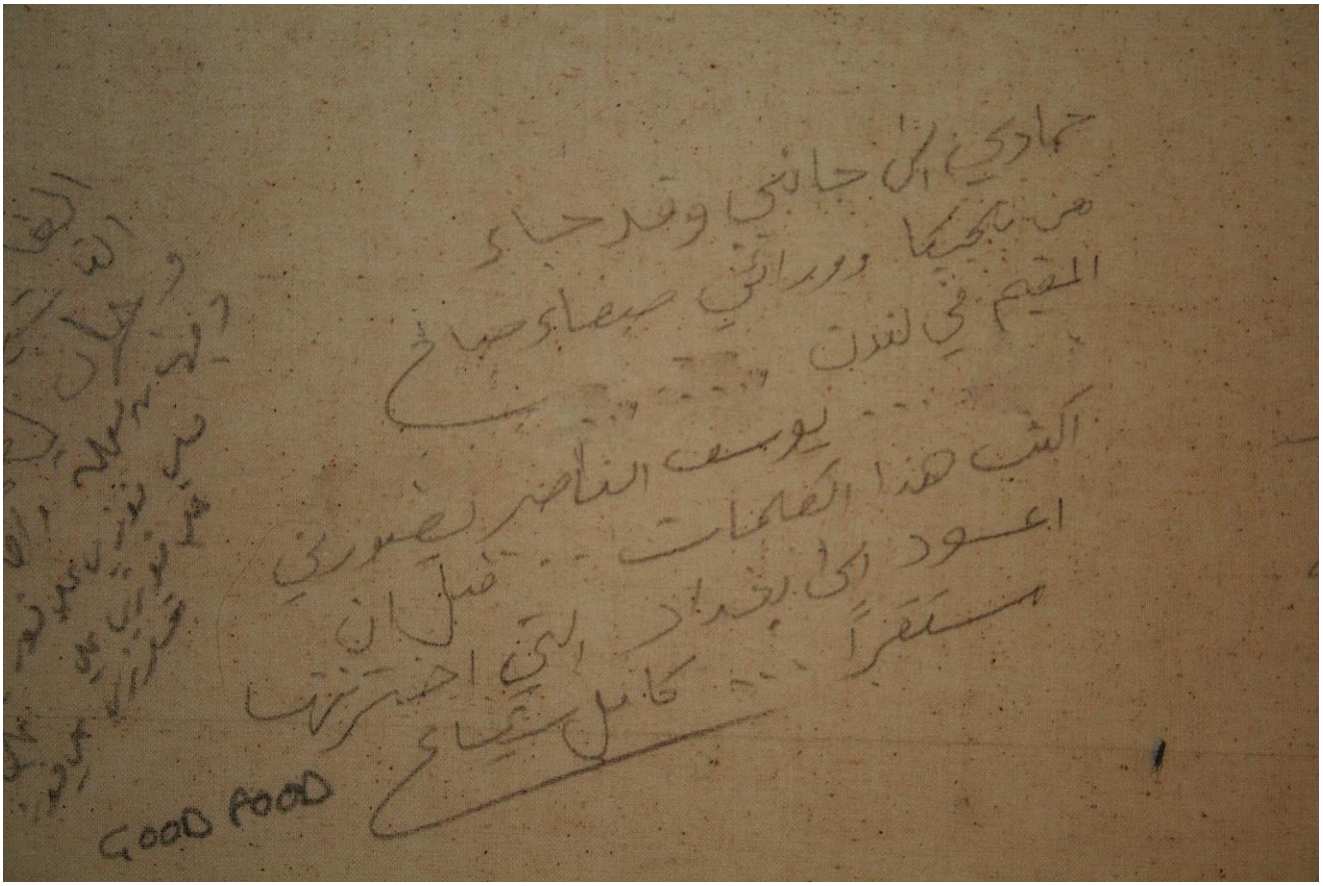
GOOD FOOD

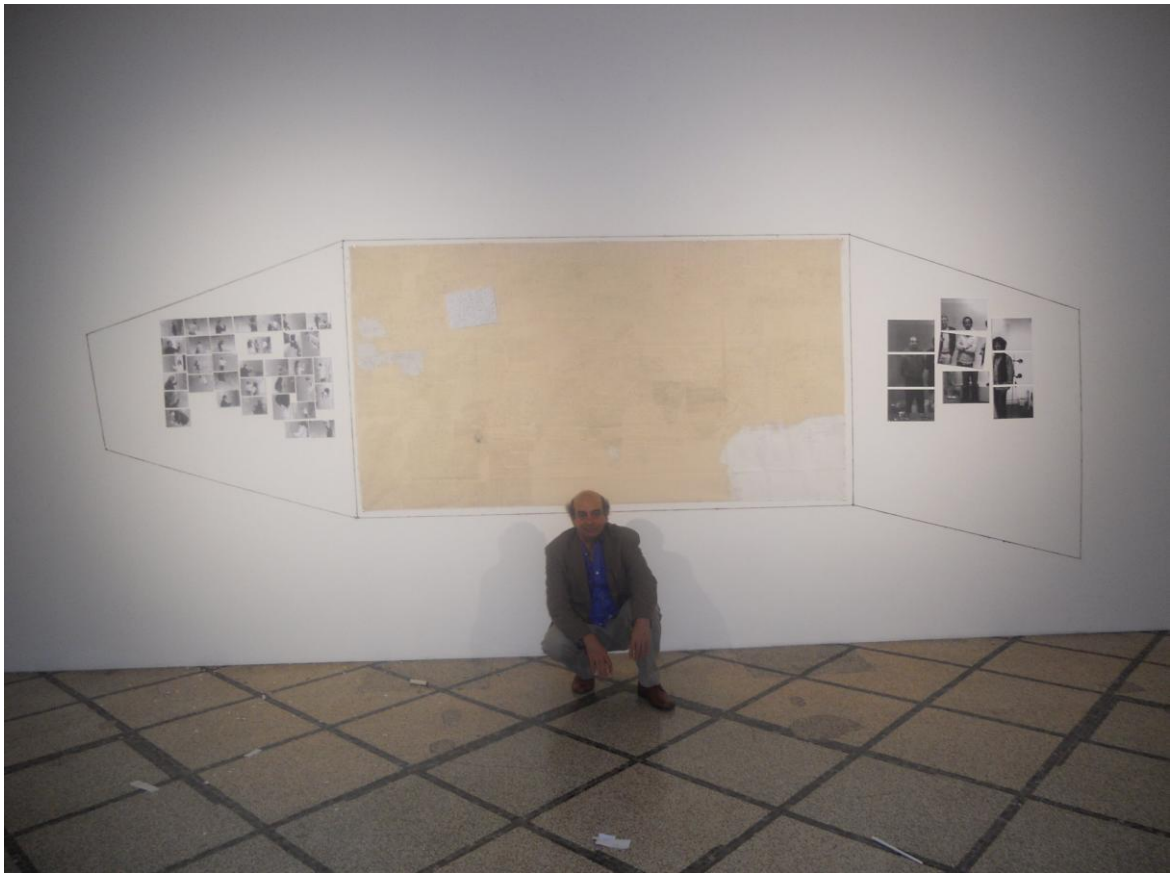

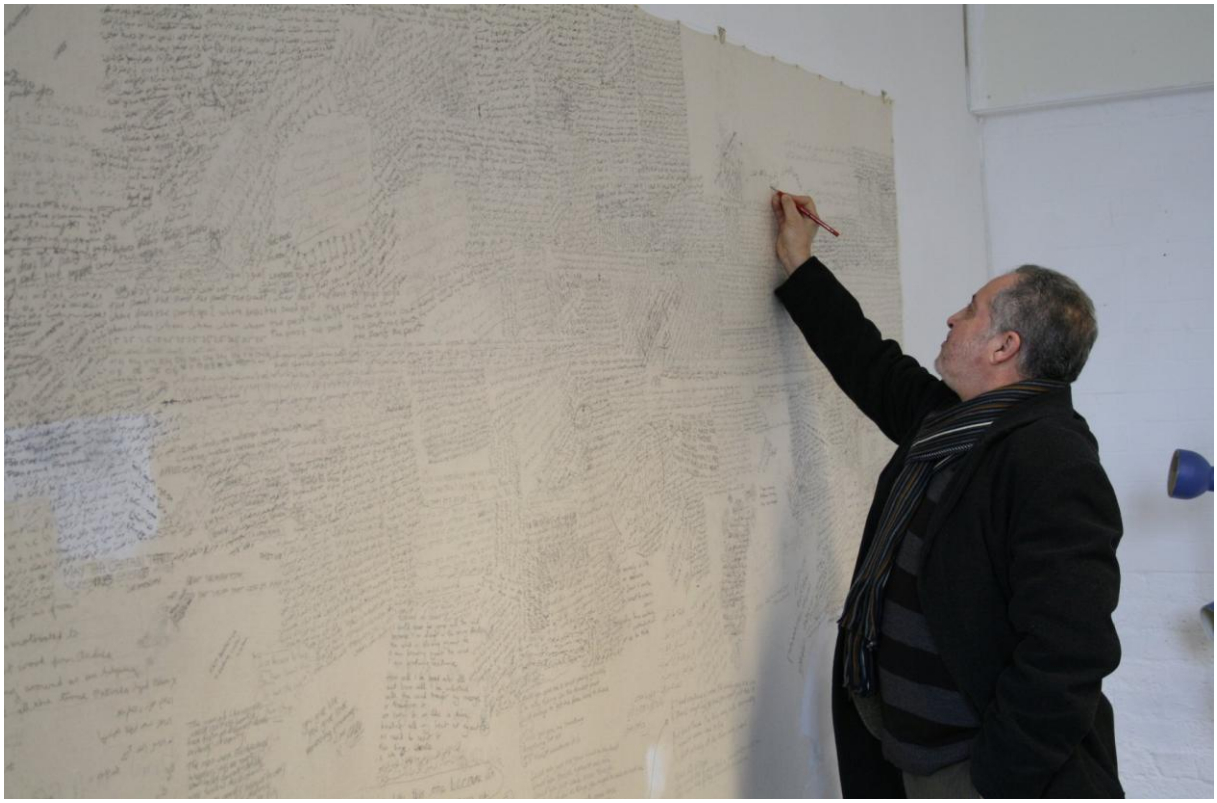

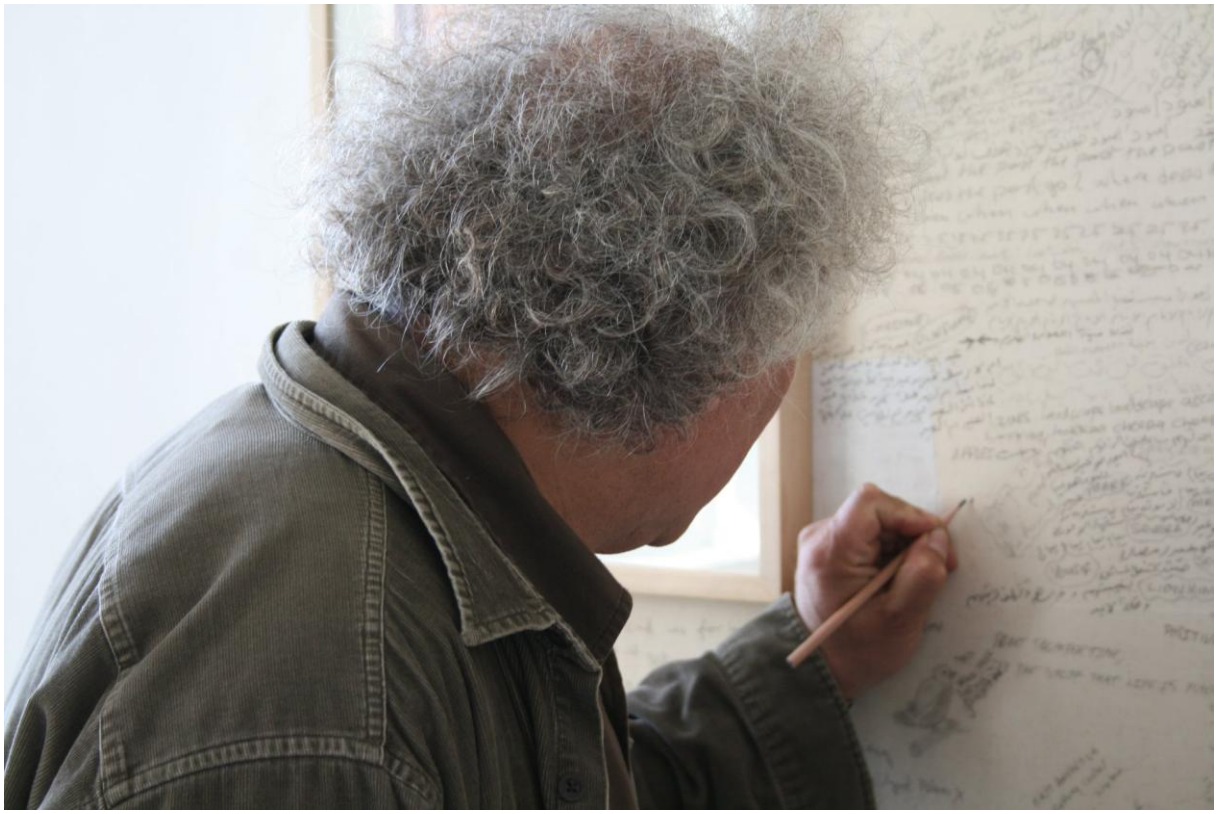

ART DOES NOT LIE
BORN IN THE RED
THAT IS MADE FOR
IT, IT IS FOREVER
CHANGING, IT'S NAME
ITS BEST MOMENTS ARE
WHEN IT FORGETS WHAT
IS CALLED